المنهج العلمي وتفسير السلوك

بسم الله الرحمن الرحيم

المنهج العلمي وتفسير السلوك

تأليف

دكتور **محمد عماد الدين إسماعيل**
أستاذ علم النفـــس
بجامعة عين شمس وجامعة الكويت
وخبير الأمم المتحدة (سابقا)

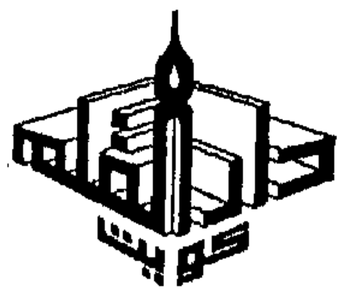

حقوق الطبع محفوظة

(الطبعة الرابعة)

مزيدة ومنقحه

١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م

دار القلم للنشر والتوزيع

شارع السور - عمارة السور - الطابق الأول

هاتف: ٢٤٥٧٤٠٧ - ٢٤٥٨٤٧٨ - برقيا توزيكو

ص.ب ٢٠١٤٦ الصفاة 13062 الكويت

محتويـــات الكتـــاب

الموضـــوع	الصفحة
مقدمة الطبعة الرابعة	٩
مقدمة الطبعة الأولى	١٣
الباب الأول	
العلم والتفكير العلمى	
الفصل الأول : تطور التفكير	٢١
الفصل الثانى : التفكير العلمى : تعريفه وأهدافه	٢٨
ما هو العلم	٢٨
أهداف العلم	٣٣
الفهم	٣٣
التنبؤ	٣٥
التحكم أو الضبط	٣٩
الفصل الثالث : مسلمات العلم	٤٤
مسلم الحتمية	٤٥
مسلم الاضطراد	٤٨
مسلم الحسية	٥١
الفصل الرابع : جوانب التفكير العلمى	٥٦
الناحية الوضعية فى التفكير العلمى	٥٧
الناحية النظرية فى التفكير العلمى	٦١
الفرض العلمى	٦٣
شروط الفرض العلمى	٦٥
الفرض العلمى والنظرية	٦٧
الفرض العلمى والقانون العلمى	٦٨
الفرض العلمى والحقيقة	٦٨

طرق تحقيق الفروض ٦٩
طريقة الاتفاق أو التلازم فى الوقوع ٦٩
طريقة الاختلاف أو التلازم فى التخلف ٧٠
الجمع بين طريقة الاتفاق وطريقة الاختلاف ٧١
طريقة التغيير النسبى ٧٣
الفصل الخامس : خصائص النظرية العلمية وبعض المميزات الأخرى للعلم ٧٦

الباب الثانى

تفسير السلوك الإنسانى

الفصل السادس : تفسيرات بدائية ٨٧
الفصل السابع : أسباب « نفسية داخلية » ٩٥
الغرائز كمثال للتكوينات الغيبية « النفسية » ٩٧
أمثلة أخرى للتكوينات الغيبية ذات الصبغة النفسية ١٠٤
الفصل الثامن : أسباب « جسمية داخلية » ١٠٨
تفسيرات غيبية ذات صبغة فسيولوجية ١١٣
مفهوم الوراثة فى تفسير السلوك ١١٦
حقائق بيولوجية فى الوراثة ١٣٥
الهندسة الوراثية والتحكم فى الوراثة ١٤٤
الفصل التاسع : الاستجابات والأهداف كأسباب للسلوك ١٤٨
الفصل العاشر : المنهج العلمى فى تفسير السلوك ١٦٠
ما هو السلوك ١٦٠
المتغيرات التى يعتبر السلوك محصلة لها ١٦٤
مشكلة التحديد – الاتجاه الإجرائى ١٧٢
مشكلة التفسير – المتغيرات الوسيطة ١٨١
تصنيف المتغيرات – إطار لدراسة السلوك ١٨٩
الفصل الحادى عشر : لماذا تأخر التفسير العلمى للسلوك ١٩٥

إلى كل الذين يعارضون الدراسة
العلمية للسلوك الإنسانى .

مقدمة الطبعة الرابعة

لم يدر بخلدى يوم وضعت هذا الكتاب لأول مرة ، أن الحاجة إليه سوف تكون أشد الحاحا بعد مرور أكثر من ربع قرن على طبعته الأولى . ذلك أن من المفروض فى عصرنا هذا ، الذى تقوم الحضارة فيه أساسا على العلم والتكنولوجيا ، أن نكون سائرين فى نفس اتجاه العصر . بعبارة أخرى كنت أتوقع أن يكون التفكير فى أمور حياتنا سواء منها ما يتصل بسلوكنا ومشكلاته ، أو ما يتصل بالبيئة المادية ومطالبنا منها ، سائرا فى الاتجاه العلمى بخطى أوسع بكثير مما كانت عليه ، وبثبات واتساق لا يتردد ولا يحيد . وخاب ظنى وخاب ظن الكثيرين معى ، عندما جاءت النتائج مخالفة لكل التوقعات .

فقد تعرضنا منذ ذلك الحين للعديد من التيارات الفكرية التى تعتبر انتكاسا مروعا لكل ما حصلنا عليه من انجازات فى عصر التنوير الذى ساد النصف الأول من هذا القرن . فألقى بالجهود التى قام بها مفكرون عظام من أمثال الشيخ محمد عبده وقاسم أمين ، فى غيابه من الجهالة . وقامت الدعوة مرة أخرى إلى النقاب بدلا من السفور ، وإلى التمسك بالشوائب التى علقت بالدين فى عصور الجهل بدلا من الزيادة فى أعمال العقل . بل أكثر من ذلك فقد أدينت نشاطات إنسانية بأكملها كالموسيقى والفن والأدب ومظاهر الملبس والمأكل وممارسات الحياة اليومية كالنوم وتناول الطعام وكل ما يمكن أن يخطر على بال ، واتهمت بالكفر والإلحاد !!

ولم يسلم من هذه الانتكاسة الفكرية بعض ممن كانت مقادير الدولة فى أيديهم . فإذا بقادة كبار يلجأون إلى التنجيم لتحديد موعد المعركة .. وإذا بمسئولين آخرين يأخذون مواقف خطيرة فى مستقبل الدولة بشىء كبير من الاستخفاف والقدرية ، بعيدين كل البعد عن الحسابات العلمية والتقديرات الموضوعية للعوامل والقوى المادية فى علاج تلك المواقف .

وإذا تركنا هذه الأمثلة الصارخة للانتكاسة الفكرية بشكل عام ، إلى ما نحن بصدده هنا من حيث النظر إلى السلوك الإنسانى كظاهرة تخضع للدراسة العلمية ، نجد أنه لم يحدث أى تقدم فى هذا الصدد . بل على العكس تأكدت النظرة التأملية الذاتية إلى تلك الظاهرة

بشكل أكبر بكثير مما كانت عليه ووجدنا من الأساتذة المتخصصين سواء فى العلوم الاجتماعية أم فى الدراسات الإنسانية من ينكر كلية امكانية قيام علوم للدراسات الاجتماعية » ويدعى أن « العلوم الاجتماعية ليست علوما »[1] .

ونجد كذلك ندوات ومؤتمرات على مستوى عالمى واقليمى ومحلى ، تدعو إلى اعتبار أن ما جاء فى التراث من آراء هو الكلمة الأخيرة فى العلم وهو ما يجب أن يتبع ، وأما غيره فهو لغو وحيد عن المعرفة الحقة[2] . وكأنهم بذلك يريدون أن يجمدوا عند ما جاءت به الحضارة الإسلامية من معارف بدلا من أن يعترفوا به كخطوة على طريق المعرفة الإنسانية ، باعتبار أن مسيرة التاريخ لا يمكن أن تتوقف .

وعلى مستوى طلاب الدراسات العليا لا يزال يعز على الكثيرين فهم الظاهرة السلوكية ووضعها من حيث المنهج والبحث العلمى . فالمفاهيم التى تتضمنها بحوثهم غالبا ما تكون غامضة تعتمد على الصياغة اللفظية التى تستعصى على الترجمة الإجرائية . وحتى لو كانت متغيرات البحث قابلة لمثل هذه الترجمة، فإن صياغة المشكلة فى كثير من الأحيان لا تنم عن فهم واضح لما نريد أن نصل إليه من حيث تفسير الظاهرة السلوكية تفسيرا علميا . ولقد صادفت عناء كثيرا فى توضيح الكثير من هذه الأمور .

من أجل هذا وأكثر لمست الحاجة الملحة إلى إعادة طبع هذا الكتاب ، خاصة وأن حقائق كثيرة فى العلم قد جدت . ومن أهم هذه الحقائق ما يتعلق بموضوع الوراثة . وتمشيا مع الاكتشافات العلمية المذهلة فى هذا المجال وما جاء به موضوع الهندسة الوراثية من إنجازات لم تكن تخطر على بال ، فقد روجع هذا الموضوع مراجعة شاملة فى هذه الطبعة – ويعتبر ما جاء فيه شيئا جديدا تماما عما كان فى الطبعات السابقة .

وأخيرا أود أن أقرر أنه بالرغم من أن هذا الكتاب لم يكن من كتب المقررات التقليدية ، إلا أنه كان فى كثير من الأحيان يطلب كقراءة أساسية لبعض المقررات خاصة مقررات مناهج البحث فى علم النفس بشكل خاص والعلوم الاجتماعية بشكل عام . ولكن ليس معنى ذلك أنه لم يكن مثيرا للجدل . فهناك من كان يعتبره – ولا يزال – كلاما خطيرا من حيث ما يجب أن تكون عليه النظرة إلى الظاهرة السلوكية . وهؤلاء هم الذين ينادون

---

(١) توفيق الطويل : **اشكالية العلوم الاجتماعية أنها ليست علوما** (مستله من : اشكالية العلوم الاجتماعية فى الوطن العربى) ندوة أقامها المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية – القاهرة ١٩٨٥ .

(٢) المعهد العالمى للفكر الإسلامى (واشنطن) – اللقاء العالمى الرابع : **قضايا المنهجية والعلوم السلوكية** – الخرطوم فى ١٥ – ٢٢ يناير ١٩٨٧ .

دائما بوجوب ابتداع منهج ملائم لدراسة هذه الظاهرة تختلف اختلافا جذريا عن منهج البحث العلمى المتعارف عليه فى العلوم الطبيعة . وإذا ما سألنا هؤلاء ما هى معالم هذا المنهج الجديد لا نخطى غالبا بأية إجابة إيجابية .

ونحن نرحب بالمناقشة فى هذا الموضوع . وربما كانت الفائدة الأولى من هذا الكتاب هو أن يكون مثيرا للجدل لا أن يؤخذ كل ما فيه كقضية مسلمة . على أن يكون ذلك الجدل فى النهاية مفيدا ، بمعنى أن نضع أيدينا على شيء ملموس يمكن أن تستفيد منه فى سبيل تحقيق أهداف الدراسة العلمية للسلوك الإنسانى .

والله المعين .

م . ع . أ
القاهرة ١٩٨٨

مقدمة الطبعة الأولى

لم يكد ينتصف القرن السابع عشر حتى صار مفهوماً لدى الناس أن عالمنا الأرضى هذا يسبح فى محيط من الهواء الذى يغلفه من جميع الجهات على النحو الذى يغلف به الماء جزءاً كبيراً من سطح اليابسة .

وقد دعا هذا الاعتقاد عالماً من علماء ذلك العصر إسمه فرانشسكولانا إلى أن يتخيل أن أى مركب أخف من الهواء يستطيع أن يسبح فى هذا المحيط الهوائى ... ثم أخذ يبين بالتفصيل كيف يبنى مثل هذا المركب إذا أردنا أن نحقق ذلك الحلم .

إلا أن هذا العالم لم يحاول أن يضع اقتراحه هذا موضع التنفيذ ، إذ كان يعتقد أن هناك سببا قوياً يحول دون تحقيقه . ذلك « أن الله » – على حد قوله – « لا يسمح لاختراع من هذا النوع أن يأخذ مجراه ، نظراً لما يمكن أن يؤدى إليه من نتائج عديدة قد تكون سبباً فى إزعاج الحكومة المدنية . فمن ذا الذى ينتظر عندئذ أن تبقى مدينة واحدة فى مأمن من شر الغارات الجوية ، ما دام يصبح فى إمكان سفينتنا هذه أن تسبح فوقها مباشرة ، وفى أى وقت تشاء . كما أنها تستطيع أيضاً أن تهبط عليها فتنزل الجنود إلى أرضها . هذا وقد يحدث نفس الشىء بالنسبة للمنازل وبالنسبة للسفن التى تسبح فى البحر . إذ أن مركبنا هذه تستطيع أن تهبط حتى تصل إلى قلاع السفن فتقطع حبالها . بل إنها لتستطيع – حتى دون أن تهبط إليها – أن تلقى إليها بخطافاتها فتقلبها رأساً على عقب ، وتقتل رجالها ، وتحرقها بكرات من لهب . وما يصدق على السفن يصدق أيضاً على المبانى الضخمة والحصون والمدن . كل ذلك دون أن يصيب سفينتنا الهوائية

أى مكروه ، إذ يمكنها أن تفعل ذلك وهى على ارتفاع يكفل لها أن تكون بعيدة عن مرمى المدافع التى قد تطلق عليها من أسفل » .

على أن تحفظ « لانا » لم يكن له أساس بالمرة . ذلك أن الله – على غير ما كان يتوقع – قد خذله ، وسمح لاختراعه بأن يأخذ مجراه . وكان ما وصفه بدقة من قتل وتدمير وإنزال جنود وضرب بالقنابل وتخريب وغارات جوية ، وغير ذلك مما أقام عليه تحفظه ، هو بالضبط ما يجرى اليوم من فنون الحرب الجوية الحديثة .

هذه قصة[1] طريفة تؤكد لنا ناحيتين هامتين فى علاقة العلم بالمجتمع: الناحية الأولى هى كيف أن عقائد زائفة قد تحول أحياناً دون تقدم العلم وتقف فى سبيله عقبة كأداء . والناحية الثانية هى كيف أن العلم يمكن أن يستخدم كأداة لخلق الشقاء والتعاسة للإنسانية ، بدلا من العمل على خيرها وإسعادها . والناحيتان ليستا مستقلتين إحداهما عن الأخرى . بل هما ، على خلاف ما قد يبدو لأول وهلة ، شديدتا الصلة إلى حد كبير . ذلك أنه إذا كان العلم الطبيعى قد استخدم حتى اليوم دون ما حرص أو مسئولية ، فإن ذلك يرجع إلى أن عقائد زائفة – كتلك التى عوقت « لانا » ومنعته من السير فى اختراعه – تحول حتى الآن دون تقدم العلم فى النواحى الاجتماعية كما تقدم فى النواحى الطبيعية .

إن الإنسان يبدو اليوم وقد فاقت قدرته كل حدود تعقله ، أو اتزانه وحكمته . أو بمعنى آخر فإن قدرة الإنسان قد نمت بشكل لا يتناسب مع القدر الذى نمت به حكمته ، أو اتزانه الانفعالى وأخلاقه الاجتماعية . فلم يكن الإنسان فى يوم من الأيام فى مركز أفضل مما هو عليه الآن من حيث القدرة على بناء عالم سعيد صحيح منتج . ومع ذلك فإن الأمور لم تبد أشد حلكة وأدعى إلى القلق مما هى عليه اليوم . إن وقوع حربين عالميتين ضروستين فى مدى نصف قرن فقط ، قد زعزع عند الناس كل شعور بالأمن ، وجعل فكرة السلام والاستقرار فكرة بعيدة صعبة المنال . فلقد بددت مناظر القتال والتخريب أحلام الناس وآمالهم فى إمكان التقدم نحو مدنية أعظم . وأصبح يخشى اليوم مما هو أشد وأقسى . أصبح يخشى من وقوع خطأ بسيط يكون بمثابة بداية النهاية ، نهاية العالم ، والإطاحة به

---

(١) القصة مأخوذة من كتاب : B.D. Skinner: Science and Human Bechavior. The Macmillan Co, New York, 1953.

فى غياهب الفناء . فإن دفع العالم إلى سلسلة من التفجرات لا تنتهى إلا بنهايته ، لم يعد اليوم شيئاً من الصعب على العلماء أن يفعلوه .

وقد يضع البعض اللوم فى ذلك على العلم نفسه ، ذلك أن العنصر المميز فى أى عصر من العصور يعتبر فى الغالب مسئولاً عن متاعب ذلك العصر . وقد لعب العلم فى القرن العشرين دوراً أساسياً . لذلك ، فليس من المستغرب أن يكون العلم فيما أصاب العالم من شرور ، هو كبش الفداء ، أو هو الضحية التى تحمل وزر كل هذه الشرور . وقد يكون لذلك الهجوم على العلم ما يبرره . أليس هو العلم الذى امتدت يده إلى الطبيعة ففهم أسرارها وحل ألغازها ؟ أليس هو العلم الذى نما نمواً غير متعادل فزاد من سيطرتنا على العالم المادى ، دون أن يعدنا لمواجهة المشاكل الاجتماعية الخطيرة التى تنجم عن ذلك ؟ أليست هى تطبيقات العلم التى تشيع الاضطراب وتسبب المشكلات بين الناس ، عندما تنشأ صناعة لا يكون المجتمع معداً لها وتندثر صناعة أخرى تاركة الملايين بغير عمل ؟ أليس هو تطبيق العلم الذى يمنع المجاعات ويقلل الأوبئة فيزيد من عدد السكان بما لا يتناسب مع قدرة الحكومات على الضبط أو التنظيم الشامل ، وعلى نشر العدالة وإتاحة فرص الحياة لكل فرد ؟ وأخيراً أليس هو العلم الذى جعل الحرب أكثر فظاعة وأشد تدميراً ؟

حقاً ، إن أغلب تلك النتائج لم يكن مقصوداً ، ولم يرتب عن وعى وتفكير سابق . ولكنه قد حدث على أى حال . ولاشك أن الناس كانوا يتوقعون أن يكون العلماء وهم النخبة الذكية من الرجال ، واعين بكل هذه الآثار ، ومدركين لما يمكن أن يترتب على علمهم من نتائج .

لذلك كله لم يكن من المستغرب أن يهاجم العلم فى بعض الأحيان ، وأن تنشأ دعوة إلى التخلى عن العلم ، ولو فى الوقت الحاضر على الأقل ، أو الاتجاه بالإنسانية نحو إحياء الفنون أو إحياء الدين ، ووضع أدوات العلم فى المتاحف ودور الآثار ، كإحدى مراحل التطور العقيمة فى الثقافة البشرية . ولكن هيهات ! فإن مثل هذا الاتجاه من العلم لا يمكن أن يجد عاقلاً واحداً يدافع عنه . فمن ذا الذى يستطيع أن يضع للتفكير الإنسان حدوداً ؟ من ذا الذى يستطيع أن يرفع يده أمام عقول الناس قائلاً : « لا تعرفى » وفضلاً عن ذلك فإنه لا فضل فى الجهل لذاته . إننا لا نستطيع اليوم أن نتصور كيف يمكن أن يتوقف البحث العلمى ، دون أن تكون نتيجة عملنا هذا أن يندفع العالم اندفاعاً إلى الجوع والجهل والأمراض .

فما هو الحل إذن ؟ الجواب هو أن العيب ليس عيب العلم فى ذاته ، بل عيب الطريقة التى يطبق بها العلم . إن الخطأ ليس فى العلم بل فى تطبيق العلم . ولقد كانت طريقة العلم ناجحة دائماً ومفيدة دائماً أينما استخدمت فقد ساعدتنا هذه الطريقة على حل الألغاز الطبيعية ، وفهم أسرار الكون . إلا أن المعرفة التى مكنتنا هذه الطريقة من الحصول عليها لم تستخدم دائماً فى الاتجاه النافع . فالعيب إذن فى التطبيق وفى الاستخدام . ومن الذى يستخدم العلم فى الطريق المدمر ؟ إنه الإنسان نفسه : الإنسان الذى يعرف والذى يكشف والذى يفسر ، هو نفسه الذى يخطىء فيستخدم علمه هذا فى غير مصلحته . فلنجعل الإنسان إذن موضوعا للدراسة العلمية كما فعلنا بالطبيعة . فلنخضع السلوك الإنسانى للمنهج العلمى ، فلنطبق الأسلوب العلمى فى فهم الطبيعة البشرية ما دام قد أفادنا فى فهم الطبيعة المادية ، وما دام الإنسان وتصرفاته هى بيت القصيد فى المشكلة .

إن الحل لا يكون بالتقهقر فى تلك المجالات التى تقدم فيها البحث العلمى ، بل بالتقدم بهذا البحث فى مجال الطبيعة البشرية ، حتى نصل إلى نفس النقطة التى وصلنا إليها فى الطبيعة المادية . إن أمل الإنسانية الوحيد فى الخلاص من أزمتها الحالية هو فى فهمها لطبيعتها ، هو فى التقدم العلمى فى مجال السلوك الإنسانى . فإذا استطعنا أن نلاحظ السلوك البشرى ملاحظة دقيقة موضوعية ، وإذا فهمنا طبيعة هذا السلوك والعوامل المؤثرة فيه ، ربما استطعنا عندئذ أن نوجهه فى الطريق النافع المفيد . ولقد أصبحت الحاجة إلى إحداث مثل ذلك الإتزان ملموسة الآن إلى حد كبير وعلى نطاق واسع . ولابد على الذين فى يدهم أمور التوجيه والتخطيط أن يعملوا على تحقيق ذلك التوازن . فمما لا شك فيه أن الدولة المتقدمة فى العلم الطبيعى ، قد أدركت الآن بشكل واضح أنه لا فائدة ترجى مطلقاً من تقدم العلوم الطبيعية ، ما لم يتضمن ذلك تقدماً واضحاً فى علم الطبيعة البشرية . إذ أننا فى هذه الحالة فقط يمكننا أن نستخدم نتائج علوم الطبيعة غير البشرية بحكمة وتعقل .

الإنقاذ والكلمة الأخيرة إذن نجدها عند العلم فى تطبيقه فى فهم الطبيعة البشرية . فعيب الإنسانية ليس فى تقدمها العلمى ، بل فى تخلفها العلمى فى مجال السلوك الإنسانى .

على أن تفسير السلوك الإنسانى تفسيراً علمياً ليس بالأمر السهل الميسرو . فهناك عوامل كثيرة قد تعوقنا عن النظرة العلمية إلى الإنسان ككائن يتصرف ويفكر وينفعل ويحب ويكره . وليس هنا مجال مناقشة هذه العوامل ، فسوف نعرض لها بالتفصيل فى هذا الكتاب . ولكن ما دام الأمر كذلك ، فأول شىء يجب أن نطمئن إليه فى دراستنا العلمية للسلوك البشرى هو أن نفهم أولا وعلى وجه التحديد ما هو العلم وما هو التفكير العلمى وهذا هو موضوع الباب الأول من هذا الكتاب . ولكى نفهم ما هو العلم وما هو التفكير العلمى علينا

أولا أن نفهم أين يقع التفكير العلمى من أنواع التفكير الأخرى ، وهل هناك أنواع أخرى من التفكير ، وما هى قيمة التفكير العلمى بين هذه الأنواع الأخرى . ولما كان تحقيق هذا الهدف لا يتم إلا فى داخل الإطار التاريخى للتفكير كظاهرة اجتماعية لذلك جعلت موضوع الفصل الأول «تطور التفكير». وإذا تحدد التفكير العلمى فى ضوء التطور التاريخى للتفكير البشرى ، يبقى بعد ذلك أن نعرّف العلم على وجه الدقة ، أى تعريفاً جامعاً مانعاً يبين لنا مميزاته ، ويبين لنا خصائصه . كما يبقى علينا أن نعرف إلى أى الأهداف يرمى العلم ، وما هى المسلمات التى يستند إليها . وهذه العناصر الثلاثة . معنى العلم وأهدافه ومسلماته هى موضوع الفصلين الثانى والثالث من الكتاب . أما كيف يحقق العلم هذه الأهداف أى ما هى النواحى المختلفة التى يرتادها العالم فى سعيه لإنجاز المهام الملقاة عليه ، فهى موضوع الفصل الرابع ، حيث تعرضت لفكرة الملاحظة أو الناحية الوضعية ، والتفسير أى الناحية النظرية ، سواء كان ذلك التفسير فى صورة فرض علمى أم قانون أن نظرية . وإذ يكتمل البحث العلمى دائماً عندما يتخذ تلك الصورة الأخيرة ، أى صورة النظرية ، لذا كان لابد أن نعرف خصائص النظرية العلمية ، ونبين بعد ذلك الخصائص الأخرى التى فاتنا ذكرها بالنسبة لما يتميز به العلم .

أما الباب الثانى فى هذا الكتاب فهو عبارة عن تطبيق الخصائص التى ناقشناها فى الباب الأول فى مجال السلوك البشرى . وهذا يقتضى منا أن نرى أولا كيف كان السلوك البشرى يفسر ، أو ما هى أنواع التفسيرات التى كان السلوك البشرى ولا يزال يخضع لها ، وما هو نقدنا لهذه التفسيرات ، على الأسس العلمية السابق ذكرها .

وإذا ما انتهينا من استعراض هذه الأنواع من التفسيرات يبقى علينا أن نبين كيف يخضع السلوك البشرى للتفسير العلمى ، وما هو المنهج أو المناهج العلمية التى يجب أن نتبعها فى ذلك . وقد اقتضى منا ذلك أولا أن نضع مفهوما واضحا للسلوك ثم نحلل هذه الظاهرة تحليلا علميا ونعرف الأوجه أو النواحى المختلفة لها وهذا هو موضوع الفصل قبل الأخير من هذا الكتاب .

والواقع أن تطبيق التفكير العلمى فى مجال السلوك البشرى ليس ، كما سبق أن قلنا ، بالأمر اليسير الهين . فكثير من الكتاب والمفكرين فضلاً عن علماء النفس أنفسهم قد يعرف على وجه التحديد ما هو العلم وما هو التفكير العلمى ، ولكنه مع ذلك قد يعجز عن تطبيقه فى مجال السلوك . فما هى العقبات أو العوائق التى تسبب هذا العجز ؟ لقد استمر هذا العجز فى الواقع صفة ملازمة للتفسير السيكولوجى حتى اليوم . ولم يبدأ علم النفس ينفض عنه غبار العقم وآثار المعتقدات الخرافية والآراء الميتافيزيقية إلا حديثاً جداً وبشكل محدود للغاية .

والأسباب التى دعت إلى تأخر نمو التفكير العلمى فى مجال الظواهر النفسية ، هى موضوع الفصل الأخير من هذا الكتاب .

كلمة أخيرة أود أن أسوقها فى هذا الصدد هى أننى فى الواقع لم أعن بالاهتمام بهذا الموضوع ، أى موضوع المنهج التفسيرى فى علم النفس ، إلا بعد ما لمست الحاجة إليه ماسة من جميع الوجوه . فعلم النفس علم حديث جداً بالنسبة لبقية العلوم الطبيعية الأخرى . ولاشك أن هذا الموقف قد جعل هناك مجالاً واسعاً لتضارب الآراء ، أو على الأقل لتعدد النظريات التى تعالج نفس الموضوع سواء ذلك فى ميدان السلوك السوى أم السلوك المنحرف. ففى مثل هذه المرحلة التى يمر بها العلم– وخاصة إذا كان موضوعه من التعقيد بالدرجة التى توجد عليها الظاهرة النفسية بوجه عام – يعانى العلم تفككاً وانقساماً وعدم تكامل إلى حد بعيد . ويؤثر ذلك بدوره على الطالب وعلى الدارس وعلى الباحث ، فيجعله يقف فى حيرة وعدم استقرار من حيث الوجهة التى يمكن أن يتجه إليها فى نموه العلمى . وعند ذلك يكون الاتفاق على أسس المنهج الذى سوف يسير عليه أى دارس فى هذه المرحلة أمرا ضروريا من الناحية النفسية كما هو أمر ضرورى من الناحية المنطقية .

هذا إلى أن الباحث قد يصعب عليه القيام بأى بحث علمى ، ما لم يكن واقفاً على المنهج العلمى فى التفكير فى الظواهر النفسية . وهذا بالفعل هو الوضع الذى لمسته فى مجال الدراسات السيكولوجية أثناء قيامى بتوجيه الطلبة الذين يعدون أنفسهم للحصول على الدرجات العلمية العليا . فإذا كان للدراسات العلمية أن تنمو فى هذا الميدان ، فلابد لنا أن نقف على المبادىء والأسس العلمية التى يجب أن تقوم عليها هذه الدراسات . وإننى لا أدعى أن المعرفة بهذه المبادىء سوف تمكن الدارس من القيام بالبحث العلمى بمجرد معرفتها . فالعلم اتجاه وأسلوب فى التفكير أكثر منه معرفة بالمبادىء . وهذا الاتجاه وهذا الأسلوب فى التفكير إنما ينمو وينضج بناء على خبرات طويلة معقدة أكثر من مجرد قراءة كتاب . وكل ما أرجوه هو أن يضيف هذا الكتاب خبرة تنظيمية جديدة إلى أولئك الذين تسمح لهم خبراتهم السابقة بالاستفادة منه . كما أرجو أن أتمم البحث والدراسة والكتابة فى النواحى التى تتناول تطبيق هذا المنهج على الظاهرة النفسية فى مختلف مظاهرها ومجالاتها ، فى القريب العاجل إن شاء الله .

م . ع . ا

القاهرة فى سبتمبر ١٩٦١

الباب الأول

العلم والتفكير العلمي

الفصل الأول
تطـــور التفكـــير

تتضح الأمور أكثر مما تتضح فى ضوء تاريخها التطورى . والعلم باعتباره طريقة للتفكير ونتاجا له معاً ، لا يمكن أن ندرك معناه بشكل واضح إلا إذا درسناه فى ضوء هذا المنهج التطورى ، أو بمعنى آخر إلا إذا استعرضنا تاريخ الفكر البشرى فى مراحله المختلفة ثم ألقينا نظرة فاحصة على مكان العلم فى سياق هذا التاريخ .

لقد وجد الإنسان البدائى نفسه أمام عديد من الظواهر الطبيعية . وكانت هذه الظواهر أكبر منه قوة وأشد منه بأساً . وكان عليه لكى يحمى نفسه من غائلة هذه الظواهر أن يعرف كنهها وأن يجد لحدوثها تفسيراً . بعبارة أخرى كان الإنسان البدائى أمام مشكلة كبرى هى كيف يقى حياته من أن تطيح بها الطبيعة المتمردة من حوله . وكيف يسيطر على تلك الطبيعة ويخضعها لإرادته بدلاً من أن يخضع هو لإرادتها . فأخذ يفكر فى أسباب تلك الظواهر وعللها ، عله بذلك أن يصل إلى طريقة للتهادن معها ، أو وسيلة تساعده على التكيف لظروفها .

أما أن الإنسان البدائى كان ضعيفاً أمام الطبيعة من حوله فكان أمراً طبيعياً . إذ أين يذهب من العواصف التى تطيح بمسكنه وأين يفر من الرعد الذى يصم آذانه ، ومن الأمطار التى تغمر الأرض عندما لا يريد أن تغمر الأمطار الأرض ، والتى تنحبس عنه عندما يكون فى أشد الحاجة إليها . وهناك الزلازل والبراكين والأعاصير ، والليل والنهار والشمس والقمر ، وغير ذلك من ظواهر الطبيعة الحية وغير الحية : أمور كلها مثار للخوف والدهشة والعجب . وعندما يثار الخوف يبدأ الإنسان يتخيل ويتخبط . وعندما تثار الدهشة يبدأ الإنسان يفكر ويبحث عن السبب .

ولكن تفكير الإنسان البدائى لم يكن تفكيراً علمياً بالطبع . ذلك أن الإنسان البدائى كان قاصراً محدود الخبرة شديد الخوف ، لذلك جاء تفكيره خيالياً خرافياً . بدأ الإنسان البدائى يرجع إلى نفسه ، إلى ذاته ، وهى الشىء الوحيد الذى يستطيع أن يخبره خبرة مباشرة .